عصر الدولة السعدية
بـ التاريخ الحضاري (ج2)

ج- الاقتصـــــــاد:

راجت **التجارة** الخارجية في هذا العصر؛ خاصة القرن 10هـ(16م)، وتعثرت التجارة في النواحي الجنوبية بسبب الثورات القائمة، على أن **تارودانت** بقيت محافظة على شيء من غناها، بمنتوجها، وخاصة ريش النعام الذي كان مطلوبا في الخارج، وكانوا يربونه قطعانا كالماشية. وقد ذكر السواح الأجانب رخاء المعيشة بالمغرب، وقد قارن مارمول أثمان الماشية والدواجن، ولاحظ كثرة الفواكه الطرية والجافة، وغزارة السمك والزيت والزيتون.

- **الفلاحة:** كانت مناطقها تعرف بالخصب وجودة الإنتاج، رغم الثورات؛ وقد ظلت ناحية **زرهون** من أخصب بقاع المغرب في ذلك، وقد أشاد بها مارمول. ومثلها كانت نواحي فاس حتى اعتبرها مارمول من أخصب بلاد العالم. ومثلها كانت **تارودانت** منطقة زراعة الكروم والزيتون والفواكه، ومرعى كبير لمختلف الحيوانات. واشتهرت تافيلالت بتمورها المصدرة إلى اسبانيا.
- **الصناعة:** ازدهر في هذا العصر صناعة **السكر**عن قصب السكر، والتي كانت أهم مراكزها: وادي القصوب قرب الصويرة، وادي تانفست بناحية شيشاوة، سهل سوس بوادي تامري، وماسة وناحية تارودانت، وناحية القصابي، وفي الشمال طنجة وسبتة. وأما مصانعها فقد عثر على أربعة عشر مصنعا منها. وقد بدأ هذه الصناعة محمد الشيخ المهدي وأتمها المنصور، إلى أن توقف تصديره بمزاحمة البرازيل وجزر الأنثيل زمن انهيار السعديين.

وازدهر في هذا العهد صناعة **الزرابي** التركية. ونفق سوق صناعة **البناء**، على أنه لم يحدث فيه تغيير يذكر. وبدأ المغرب بصناعة **المدافع** في ترسانة مراكش الموجودة بالقصبة، التي عمل بها عدد كبير من أسرى النصارى بإمرة أتراك وعلوج. كما صنع أول المدافع من البرونز بها عن طريق علج من مدريد. واكتشف في أثنائها أحد الجزوليين سر صناعة **القنابل**، الذي لم يكن يعرف عندهم من قبل. وللمنصور **مؤلف** في الشؤون السياسية والعسكرية ضمنه أسرار صناعة المدافع وطرقها.

- **التجارة:** سيطر **اليهود** على فروع التجارة المغربية، ولم ينافسهم إلا **الإنجليز** بشركتهم الموسومة بـ"الشركة البربرية" (Barbary Company). وكانت أهم المنتجات المغربية المرغوب فيها من الأوربيين: السكر والتمر والنحاس الأحمر والذهب مسكوكا أو مصوغا والصمغ والعنبر والشمع والخيل والجلود والمواشي. وكان المغاربة يستوردون الأسلحة والرماح والملف والسفن والقصدير. وكانت إنجلترا أكثر الدول تعاملا مع المغرب، وكانت الموانئ التجارية التي تتعامل معها اسبانيا هي: بليونش وتطوان وسبتة وأكادير وآسفي التي كانت منفذ مراكش، وكان مبلغ الصادرات سنويا ثمانين ألف دوقة.

وعرفت مراكش أعظم مظاهر نشاطها الاقتصادي في تاريخها؛ فقد كان بها مقر أهم "**ديوانة**" بالمغرب، وهو جمرك ومستودع لبضائع التجار الأوربيين، مع مصرف مالي. وكانت تفتش قبل أن تستخلص عنها حقوق الجمرك والتي هي 10 في المائة عند الدخول، وقد تبلغ 30 بالمائة عند الخروج. وكانت هناك ديوانة أخرى أكبر بساحة جامع الفنا، من بناء محمد المهدي، والتي اتخذها التجار الأوربيون فندقا (1034هـ/1624م).

كانت موارد حركة الجهاد البحرى تقسم كما يلي: 10 في المائة لديوان سلا والرباط، و45 في المائة لصاحب المركب، و45 في المائة لربان السفينة. وعند خضوعهم للسلطان كان يأخذ الخمس ثم نصف الباقي لكونه صاحب المركب.

د- العمـــــران:

يعتبر الفن المعماري في هذا العصر امتدادا للفن المعماري **المريني**، وإن تميز بأن فيه مزيدا من الهرب من الفراغ، واقتباسا من الفن **الغرناطي**؛ حيث تأخذ الآيات الكريمة والأبيات مكانا بارزا في النقش. وقد كان أثر **المورسكيين** قويا في البناء والفنون في سلا والرباط. ويظهر التأثير **التركي** من خلال هندسة ضريح مراكش التي استمدت منه تعدد العقود في القبة الرئيسة، ولعل قباب قصر البديع قد أخذت عن الهندسة التركية البيزنطية. ويظهر الأثر **البرتغالي** في الحصون والأبراج بسبب إدخال المدافع بها.

وكان جل الجهد المعماري السعدي متركزا في ناحية **السوس** وما جاورها، في حين بقيت المدن المخربة في النواحي الأخرى على حالها. وكانت أم مدنها تارودانت من المدن البربرية العتيقة بنتها جازولة؛ وقد عمرت في هذا العصر وكبرت بدليل سورها الذي بلغ محيطه 07كم، وكانت أرضا للزراعة ومركزا لصناعات كثيرة، وسماها محمد المهدي بالمحمدية، وكان اختطاطها سنة 945هـ.

ومما **اختطه** السعديون قرية أمسكرود، والصويرة القديمة، وبعض أكادير كمرساها. وشاد المنصور **قصبة مراكش** وراء جامع المنصور، وبنا بها قصر البديع، وكان سورها يمتد 600م شمالا و550م شرقا. وبني الوليد السعدي القصبة الوليدية سنة 1044هـ.

وبنا المنصور حصنان بفاس وآخران بالعرائش، وقلعة حصينة بتازا. وبنا محمد الشيخ حصن أكادير، كما بنا العياشي برجين على شاطئ سلا. وبنا المهدي قنطرة على وادي سبو وجسرا عظيما على وادي أم الربيع، وبنت مسعودة أم المنصور قنطرة وادي أم الربيع، ورممت أخرى بوادي فاس. وبنا الدلائيون ثلاثة جسور على وادي أم الربيع، وبنا عمر الشاوي أحد الصلحاء قنطرة خارج فاس.

ومن أعظم بناءات المنصور **قصر البديع**، وقد استغرق العمل فيه 16 سنة (986-1002هـ)، وشارك فيه عمال من أروبا خاصة من إيطاليا، واستمد هندسته من قصر الحمراء. وهو مربع به أربع قباب رئيسة، يحيط بوسط الدار أروقة بأعمدة رخامية، في كل زاوية صهريج مرخم، بالإضافة إلى الصهريج الأوسط وهو أكبرها، تتوسطه قبة من المرمر. واستعمل الجبس منقوشا للسقوف والجدران مموها بخالص الذهب، وغير هذا من بدائعه. وقد خربه إسماعيل العلوي سنة 1119هـ. ولم يكثر السعديون من بناء **المدارس**، لكثرة المدارس المرينية، ولبناء الخواص لها. وعنوا ببناء **المساجد**، كالجامع الأكبر بتارودانت، وجوامع المواسين وباب دكالة و الفنا وأبي العباس السبتي، وغيرها من بناء غيرهم. ونشط بناء **الزوايا** في هذا العصر، وكان من أشهرها زاوية تمكروت أكثرها أتباعا. ومن بناياتهم الباقية **ضريح** السعديين بقصبة مراكش بدأه الغالب وأتمه المنصور.

هـ ـ الحياة الفكـــــرية:

اشتهر الملوك السعديين **بثقافتهم** الواسعة وقربهم من أهلها؛ وقد كان المنصور رائدهم في ذلك؛ وقد ألف كتبا في الشؤون السياسية والعسكرية، وله تعاليق على كتب، واشتهر بجمع الكتب وتحبيسها. وكانت **مراكش** مقاما للعديد من أهل الفكر والأدب، وحتى الأجانب تخرجو منها، وكان أول مستعرب إتيان هوبري (Etienne Hubret) أول أستاذ للغة العربية بكلية الطب بباريس.

وكانت **السوس** أيضا مركزا فكريا وتعليميا، نشطت فيها الزوايا والأسر القيمة على التعليم والمالكة للخزائن، في كل من إليغ وتارودانت وتامنارت وأكلو وتازروالت وتازمورت. ونبغوا في ميادين الفقه والفرائض والأدب خاصة. وكان للزاوية **الدلائية** مجهودا كبيرا في نشر التعليم والثقافة ربما يفوق مجهود الدولة.

-الأدب: يقترن عادة مع **شعراء** وأدباء البلاط، وشعر المدح، وكان للسعديين نصيب من ذلك، واشتهر في هذا أبو فارس الفشتالي، ومحمد الهوزالي...واشتهر في المولد شعر المديح النبوي، وغن

خلا المديح من التملق المفرط والأوصاف الزائفة. واشتهر شعراء *الملحون* في المديح النبوي، وكان أطولهم باعا عبد العزيز المغراوي. وامتاز هذا العصر **بالتراسل** بالشعر والنثر الفني مما لم يكن شائعا قبل. كما كان **أسلوب** المؤلفات رصينا، وكان أبرعهم فيه الفشتالي (ت 1032هـ) المائل إلى أسلوب ابن خلدون.

-**العلوم الشرعية:** انتشر الاهتمام بالعلوم الدينية في هذا العصر، خاصة علم القراءات والنوازل والعقائد. وكانت الحاجة الإدارية والاجتماعية تدفع إلى ذلك. وقد برز عدة **علماء** ومؤلفين في شتى فنون الشريعة كمحمد الصماتي الهبطي في القراءات، والحاج محمد الشطيبي في التفسير، وأبو العباس أحمد المنجور في الفقه وغيرهم. واشتهر علماء التصوف ومؤلفاتهم كثيرة منهم أبي العباس الصومعي، ومن أهل الحديث المؤلفين فيه أبو العز القصري كتب حاشية على الصحيح.

-**العلوم اللغوية:** عرفت إقبالا واسعا في الأوساط البربرية خاصة، وبقيت الألفية والأجرومية وشروحهما أساسا للمادة الدراسية، رغم محاولة المنصور إدخال بعض الإصلاحات في مادة التدريس. واشتهر علماء في النحو واللغة كالقاضي ابن عرضون. ولم يكن **للمعاجم** نصيب في المغرب، وإن كتب الحسن الوزان معجما لاتينيا عبرانيا.

-**التاريخ:** لم يهتبل المغاربة بالتاريخ العام، بل تخصصوا كغيرهم **بالتواريخ المحلية**، المدفوعة من قبل البلاط، وقد كان أكثر مؤرخيهم من طبقة رجال الدولة أو ممن كلف رسميا بوضع تاريخها. ومن أبرزهم **الفشتالي** صاحب مناهل الصفا، وهو أهم مؤلف في تاريخ السعديين لم يصلنا منه إلا جزء مختصر من أجزائه الأربعة. ومنها الجمان في تاريخ الزمان للحاج محمد الشطيبي. واشتهر في **التراجم** ابن القاضي صاحب جذوة الاقتباس ودرة الحجال، وانتشرت فهارس المشايخ أيضا. وقلت كتابة **الرحلات** إلا ما كان من رحلة أبي الحسن التمكروتي الجزولي (ت1003هـ) الموسومة بالنفحة المسكية في السفارة التركية.

-**الطب:** كان منتسبوه من الشخصيات ذات الثقافة العامة، لذا تراجع الطب التجريبي عما كان عليه زمن المرينين، رغم نشاط الظاهر في التآليف الطبية، وبروز أطباء أعاجم ككيوم بيرار وأرنول دوليل. وأبرز الأطباء أبو القاسم الغساني الوزير، له حديقة الأزهار في شرح ماهية لعشوب والعقار.

-**الرياضيات والهيئة:** وكثر الإقبال على هذين العلمين بشكل بارز في هذا العصر، للحاجة إليها في هندسة المباني ومعرفة المواقيت. لذا ألف في علمائها ابن القاضي كتابة في طبقات الحيسوبين والفرضيين. ومن علماء الحساب محمد ابن أبي العافية المكناسي (ت981هـ) والد ابن القاضي؛ ومن أهل الهيئة أبو زيد البعقيلي (ت 1006هـ)، وكان المنصور نفسه مولعا بالرياضيات.

وصفوة القول؛ أن الحضارة السعدية لم تكن بمعزل عن الحضارات الكبرى في بلاد المغرب، وهي وإن لم تبلغ شأوها إلا أنها كانت رائدة في بعض ميادين المعرفة والأدب.

اهـ

- المصادر و الراجع:

- مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تـ. عبد الرحيم بنحادة، عيون المقالات، مراكش، ط. 1، 1994م.
- أحمد بن القاضي، المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور، تـ. محمد رزوف، مكتبةالمعارف، الرباط، 1986.
- أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي ، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا، تـ. عبدالكريم كريم، وزارة الأوقاف.
- الناصري أحمد بن خالد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تـ. جعفر الناصري و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1418-1997.
- عبد الكريم كريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، ط. الثالثة، 1427-2006م.
- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، ج2 من المرينيين إلى السعديين، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1420-2000.
- عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، 1988.